

« أغنية في سرآب »

بقلم الدكتور أريك لويبا

حتى الى أطفالهم فيدعون تربيتهم لنساء غريبات أو قتل حتى لنساء لا يشقون بكفاءتهن الثقافية أو الطبقية ، فاننا لا نكاد نرى لاقحام صفة الزنجية مبررا آخر . ومربيسة الاطفال هذه ليست بأقل ضجرا وقلقا وبردا من سيدها - أو سيدتها - فتفرح وتقول : « الجاز من الدم ايقاع » . وموسيقى الجاز بضرباتها السريعة واقاعها اليدائي المثير تقوم مقام قرص دواء منشط وقتي يطرد من النفس غبار السأم والقلق ، فعلها فعل مخدر تنهزم به النفس من فراغها الروحي ووحشيتها وقلقها عن طريق الانهماك في نشاط جسماني (١) . وليس مستبعدا أن يكون السياب قد تعمد استعمال موسيقى الجاز كرمز كي يشير عن كذب وبصورة رقيقة الى ذلك الافراج عن النفس الذي يجده الكثيرون في هذه الايام في النشاط الجنسي ...

وبسرعة ودون انذار ، ينتقل بنا الشاعر الى منظر آخر ، الى ضيوف يبدو انهم بدورهم من الجوف الذين نخرهم الفراغ والقلق اللذان يرمز اليهما الشاعر بالبرد - جاءوا يزورون مرجانة وسيدها - أو سيدتها - لينسوا أنفسهم وينبذوا وحدتهم (ليتدفأوا) في تجاذب اطراف حديث لا صلب فيه ولا عمق ولكنه حديث عن الفير بمغبة الفير ، أو كما يقول السياب : (ليلوذوا بمدفأة من اعراض البشر) !

فهم اما يفتابون الناس لان مآسي الفير او نواقصهم تمدهم بشعور بالرفعة يدرأون به مركب النقص فيهم : (والضيقة تضحك وهي تقول : خطيب سعاد - جافاها وانطوت الخطبه - الكلب تنكر للكلبه) .

واما يتحدثون عن حياتهم الجوفاء الخاوية التي لا مثيرات فيها ولا حب :

سيعود اذا انتصف الليل

زوجي سيعود الى الدار

من بيت صديق أو بار

لا شوق يعلق بالرقاص ولا بالعقرب ابصاري

لا ندري على وجه التحديد لماذا لم تحظ هذه القصيدة الفريدة بالحظ اللائق بها من عناية الادباء واهتمام النقاد فاذا هي تنحي جانبا أو تكاد كلما بادر اديب أو شاعر الى تناول نتاج السياب الشعري .

لقد نشرت (اغنية في شهر آب) اول ما نشرت ، على ما نعلم ، في هذه المجلة (الآداب) في العدد الخامس من السنة الرابعة (مايو عام ١٩٥٦ ص ١٦٠) كمحاولة لكتابة الشعر بأسلوب جديد طرحها « الآداب » على القراء وتطلب فيها آراءهم . ثم علق عليها الاستاذ هنري صعب الخوري في العدد التالي من « الآداب » (عدد ٦ ص ٦٧) باقتضاب وبشيء من التهرب حيث قال : « انها محاولة موفقة تسدين الى المتدارك بالكثير ، وأترك أمر التأويل والحصر خوفا من السقوط فيما سقط فيه (الآن) حين عمد الى قصائد بول فاليري ... » .

والسياب في هذه القصيدة - كما اشار الى ذلك الاستاذ الخوري عن كذب - متأثر بالشاعر الانكليزي (ت. س. اليوت) يعمد الى اعطائنا مجموعة من الصور سريعة الانتقال ، كتلك الصور التي يعكسها الفانوس السحري تكاد تكون مفصولة منعزلة بعضها عن بعض ، ولكنها في مجموعها وتلاحقها توحى الينا بجو معين ، متنوع في التفاصيل ، غير انه الى ذلك متراس متماسك في الصبغة والانطباع الذي تتركه هذه الصور كلها بمجموعها .

والسياب يفتح أولى هذه الصور بتموز يحتضر ايدانا باقبال الشتاء المظلم . ثم يلحق هذه الصورة دون انذار بصورة جديدة لما يبدو انه غرفة في دار يسودها الضجر والفراغ النفساني الموحش يدعو فيها بطل القصيدة السلبية Anti - hero الذي يصر الشاعر على ترك جنسه مبهما - فلا مجال لنا أن نعرف ما اذا كان هذا البطل رجلا أو امرأة - تدعو هذه « الشخصية » مربية الاطفال الزنجية الى أن تضيء النور ، فالليل يرهب الذين تملأهم الوحشة والفراغ ، ومن شأن النور والضيء أن يخففا من الوحدة والقلق .

ولعل السياب قد اختار لمربية الاطفال أن تكون زنجية (وفي البصرة وجنوب العراق مسقط رأس الشاعر ولدى معظم الاسر المترففة في العراق كثيرا ما توجد خادمت ومربيات اطفال من أصل زنجي) لكي يرمز بها الى أولئك الناس الجوف الذين لا صلصلة وثيقة تشدهم

(١) يقول البروفسور رولو مي Rollo May : « يعلم اطباء

النفس ان القلق تعويض عن الشعور بالعقم . فالرجال والنساء كي يشبتوا انهم يتمتعون بالقوة الجنسية ، يقاومون شعورهم بالوحدة والوحشة ويقومون بمحاولة يائسة للفرار من شعورهم بالفراغ والخشية من عدم مبالاة الغير بهم » .

Prof. May Rollo : Antidotes for the New Puritanism : Saturday Review, March 26, 1966 P. 2.

لا آهة من رهب تغلو
من رنة المفتاح في الباب
وضياء من شق ينساب
كالماء المالح أشربه حتى تتفطر أغواري !
وأما يتحدثون عن غيرهم في أمور تشف عن حسد
وغيرة كما في هذا الوصف لحنية ثمينة مهداة :

« وماس وبقيتها ذهب
وهدية والدها ؟ الله هدية والدها ... عجب
صياد بين يديه شباك
تتلامح ملأى بالاسماك
ذهب وزعانف من فضه
ولآلىء توهم ان هياكلها تثب
وبان لصاندها خضه ! »
ثم ينتقل المنظر فجأة الى :
« ليل وجليد
يتساقط عبرهما صوت : رنات حديد
وعواء ذئاب يخفتها »

ولعله يرمز الى الطبقة الحاكمة في العهد الملكي الذي
كرهه السياب وكرهه معه معظم أبناء جيله ، تلك الطبقة
التي تستغل خواء الشعب لتعد السلاح (رنات حديد)
لتخضعه أو تقتله به بينما تعوي كالذئاب بشعارات وطنية
أو ما أشبه لتخفي ما هي تقوم به في الواقع .

ولكن السياب لا يقف طويلاً عند هذه الصورة
القائمة ، انما ينتقل منها الى صورة أخرى نجد فيها
الزوجة (من هي ؟ لا ندري ، بل لعلها مرجانة أو سيدتها
أو لعلها امرأة أخرى مما يرمز به السياب الى عمومية هذه
الشخصية) تدعو زوجها الذي لا تحبه والذي (لا شوق
يعلق بالرقاص ولا بالعقرب) ابصارها شوقاً اليه وترقباً
لهودته ، ذلك الزوج الذي تشعر نحوه (كالماء المالح أشربه
حتى تتفطر أغواري) - تدعو الى مشاركتها بردها
وخواتمها عن طريق اغتياب الناس (فالتناس كثير والظلماء
- نقالة اسعاف سائقها أعمى) وبالأخص لان زوجها أجبن
من أن يثور أو يقوم بأي فعل ايجابي لمقاومة « البرد » ،
ذلك الجمود الروحي المليء بالضجر والوحدة (لان فؤادك
جبانه) ...

والسياب كتب هذا الشعر في يسر الشاعر المحترف
القدر وسلاسته ، فهو ينبض بالإيقاع والنغم . وقول
الاستاذ الخوري بأن القصيدة تدن الى المتدارك بالكثير
لا يفسر براعة هذا الشعر ، فالمتدارك انما هو قالب
معروف ، وما يوضع في القالب عادة أهم من القالب ، فان
كان رديئاً سخيفاً فان القالب لا يشفع له في شيء .
ومهما يكن من أمر فان سلاسة السياب في أنشودته هذه
تكاد توهم القارئ أو السامع ان الشعر قد كتب دون
عناء ، ولكن امعان النظر فيه يشير الى ان نظمه لا يمكن
أن يكون قد أتى عفواً ، فالإبيات تكاد تتراقص إيقاعاً ونغماً
رغم ان محتوى القصيدة بعيد كل البعد عن الرقص

والمرح . ولعل السياب قد عمد الى ذلك عمداً ليجرز
التناقض بين محتوى الانشودة القاتم الرهيب وبين شكلها
الخارجي النابض بالحياة والإيقاع ، ليرمز بذلك الى واقع
المدينة التي تبدو مرحة نابضة (شكل القصيدة) ولكنها
تخفي تحتها بؤساً وضجراً وحيرة وعدم استقرار (محتوى
القصيدة) ...

ومهما يكن الامر ، فالقصيدة فسي اجمالها وعلى
صورها السريعة الانتقال التي تبدو لأول وهلة عديمة
الصلة فيما بينها ، توحى اليها في مجموعها بذلك القلق
أو قل الخوف الخفي وعدم الاستقرار الباطن الممزوج
بالشعور بالوحشة والضياع الذي يساور أشخاص القصيدة
فيعمدون الى الالتجاء بعضهم الى بعض ليتدفأوا أو
لينسوا انفسهم بالحديث الفارغ ، رغم انعدام حرارة
الحب التي تربط فيما بينهم .

والسياب ، كاليوت قبله حين يركن الى الرموز
والاساطير ، يضيف على أشعاره مستويات وأبعاداً جديدة :
ف (تموز) الذي هو اسم شهر في الصيف هو كذلك اسم
اله الربيع البابلي . وموت (تموز) الشهر يرمز في بعد
واحد أو في مستوى واحد الى انتهاء فصل الصيف ،
ويرمز في مستوى ثان الى موت تموز الاله البابلي يقتله
الخنزير البري (الليل : الخنزير الشرس !) ، وموت تموز
هذا يرمز الى موت الحياة نفسها عند أشخاص القصيدة
وان بدوا أحياء يرزقون ، فانهم لشدة انغماسهم في (برد)
أرواحهم وتخوفهم وقلقهم لا يحركون ساكناً أو لا يملكون
حراكاً لرد هذا الموت عنهم (تموز يموت ومرجانة - كالفأبنة
تقبع بردانة) .

ولا بد لنا ان نعيد الى الذاكرة هنا ان هذه القصيدة
قد نشرت عام ١٩٥٦ ، ولعلها نظمت في ذلك العام بالذات
أو قبله بقليل . والعراق اذ ذلك كان لا يزال يقبع تحت
نظام الحكم الملكي المسنود بطبقة الاقطاعيين وأصحاب
الاراضي ، تلك الطبقة التي تقم عليها السياب ونقمت هي
عليه مع جل أبناء جيله من الشباب العراقي المتوثب .
وشاعرنا السياب كان ينسوي التعبير عن تلك الحالة
المؤسفة اليانسة في العراق التي رأى فيها ان أمثال نوري
السعيد من الحكام انما كانوا بالفعل يقتلون حياة العراق
وحرية شعبه و « يفتالون » حقه في التقدم الاقتصادي
والاجتماعي والسياسي . غير ان السياب أدرك كل الادراك
انه لو قال ذلك في شعره صراحة ودون تمويه لكان زج
في غياهب السجون والمعتقلات تغله السلاسل الحديدية
والقيود كغيره من الكثير من شباب العراق (ليل وجليد
يتساقط عبرهما صوت رنات حديد - وعواء ذئاب
تخفيها) .

وشعب العراق ، أو هكذا تراءى للسياب ، غائر
قابع في برده الذي أثلج روحه والفراغ الذي خدر كل
عضو من أعضائه ، قد فقد كل جرأة على الكفاح والثورة ،
فقدنا في حالة شلل لا يملك معها أن يهب في وجه طغاته ،

حربتي والحاتم المسروق

« قالت جدتي : ... ووقف الشاطر حسن امام ثلاثة طرق

حائرا واستند الى الحائط وبكى »

بكيت على مشارفها البعيدة ...

حين نسام الناس

وأبكيت البيوت الحمر من حولي

وسرح مجرّح القدمين ...

سرت معدّب الاحساس

وقيل لنا : وقوفا وارفعوا الايدي

وقلبك يا مدينتنا

سقاه الحرس الليلي مرّة الكاس

ووجهك يا مدينتنا

بكي ياسا

دعي الاحزان والبؤسا

وسمي كل شيء باسمه ...

فالكأس ما عادت لنا كأسا

دعي الاحزان ... هذا اليوم يومك ...

فارفعي الراسا

دعيه يطاول الزرقاء

سأركب مهرتي الشهباء

وأمتشق الحسام وأنصب الترسا

ولكنني

سأرحل عن منازل أنت سيدها
وأنت الأمر الناهي
وأنت وأنت قائدها
فقد أوشكت ان اغرق في كاسي
وقد أوشكت ان يقتلني ياسي

مشينا في دروب النفي ...

في الصحراء في الزرقاء في المركب

وهذي دربنا الاولى

تعيد الحر مفلولا

تصد ولا ترد الغائب المتعصب

وهذي دربنا الاخرى

نعيش بها عبيدا نرتضي بالجور

تقول لنا بأن نحيا بلا شفة ...

ندور كما يدور الثور

وهذا دربنا الثالث :

يقود الى جزيرتنا البعيدة ...

حيث تسكنها الشياطين الشتائيه

وتسرق خاتمي جثيه

وأصرخ يا علاء الدين ضاع السر ...

كيف أفك هذا الطلسم الاسود

ولا « شبيك » لا « لبيك » ...

فاسمع صرخة المرتد

فقد أوشكت يا ابناه ان أكفر ان أرتد .

عز الدين المناصرة

القاهرة

رآه السياب قابعا في قعر داره ملتحفا عجزه وبرده :

(تموز يموت على الافق

وتغور دماه مع الشفق . . .

تموز يموت ومرجانه

كالغابة تقبع بردانه)

بل ان شاعرنا قد رآه فيما هو أنكى من ذلك ، رأى

الشعب العراقي في ٥٦ - ١٩٥٥ يتهزم من العمل الايجابي

ويفر من الكفاح الى الاحلام والى حلول وهمية وعبر

خرافية لا تتطلب منه ان يقوم بعمل ، أي عمل ! فيقول :

(تموز يموت ومرجانه

تتعوذ من عقد السحر

والليل الراكد بالخضر !!!)

فشعب العراق ، الذي يرى السياب ان حكامه جاروا

عليه وأسلموه الى (الليل الراكد) يعج بأوبئة الفقر

والجهل ، هذا الشعب العراقي يراه السياب راضخا

لا يهب في وجه ظالمه انما يدرأ عنه هذا (الليل الراكد)

الذي هو الفقر والجهل والايامن بالاحلام والخرافات

(عقد السحر) - يدرأ الشعب العراقي كل هذه ...

بخرافات لا تقل خداعا وايهاما من (عقد السحر) يدرأها

(بالخضر) !! والخضر هذا كما يقول السياب شخصية

أسطورية عاصرت الاسكندر المقدوني واهتدت - دون

الاسكندر - الى « بحر الحياة » وعرفته حين ألقت فيه

سمكة ميتة فعادت اليها الحياة ... وشرب (الخضر) من

مائه فنال الخلود والحياة في الدارين ، الدنيا والآخرة !

فما أيسر هذا الظفر وما أهونه ، وما أقله داعيا الى

العمل مطالبا به !! هكذا يرى السياب أبناء شعبه بدل أن

يركنوا الى الجهاد والكفاح والعمل لادراك ما يصبون اليه ،

يراهم يلجأون الى الاحلام والحلول الخرافية السهلة كتلك

التي منحت الخلود (للخضر) الخامل ولم تمنحه للاسكندر

المقدوني كبير قادة العالم القديم !

هذا بعض من الضوء أردنا القاءه على قصيدة فريدة

للمرحوم بدر شاكر السياب لعل فيه ما يبرز ميزاتهما

وينقدها من الاهمال الذي كان حظها حتى الآن ...

أريك لوي

أستاذ الادب العربي

في جامعة بنسلفانيا